بسم الله الرحمن الرحيم

الأحد 3/11/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

أبواب الفرج

الالتجاء إلى الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

بدأنا في سلسلة دروس بعنوان **أبواب الفرج** سائلين الله تعالى أن يعجِّل لنا بالفرج وأن يجعله محفوفاً بألطافه.

حديثنا اليوم عن أقوى وأول باب من أبواب الفرج، ويعتبر واسطة العقد والعروة التي إن تمسكنا بها فإن الفرج مضمون بإذن الله تعالى فتمسكنا به يدلنا على أننا فهمنا على الله تعالى أمره ونهيه، والابتلاء الذي يبتلي به عباده المؤمنين.

حديثنا اليوم عن **الالتجاء إلى الله تعالى**.

تعلمون أيها الإخوة أنه لا فاعل في الكون، ولا معطي، ولا مانع، ولا خافض، ولا رافع، ولا قابض، ولا باسط، ولا مذل، ولا معز إلا الله.

إذا منع فلا معطي بعد منعه، وإذا أعطى فلا مانع لعطائه، إذا كان الله معك فمن عليك؟! وإذا كان الله عليك فمن منعك؟!

إلهي ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك.

لئن التجأنا إلى الله تعالى وتضرعنا إليه وناديناه ودعوناه فقد قرعنا أوسع أبواب الفرج وقد فهمنا على الله تعالى سنته في الابتلاء قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: 76].

- ترى الشدائد تنزل وهي تهتم بما تضعه على وجهها ليلتفت إليها الناس.
- الضيق يحل بالعباد وهو يهتم بما سيأكل ويشرب ويلبس.

- يسهر لساعات متأخرة من الليل على اللعب والضحك والأغاني والتدخين والمسلسلات حتى إذا قُلت له: صَلِّ ركعتين وناد ربك في سجودك، قال إنني متعب ولدي عمل...

يا أيها الإخوة قبل الأزمة كان هناك عباد مصابون بقسوة القلب فلما نزلت الأزمة لانت بعض القلوب، لكن قلوباً أخرى مع شدة الأزمة ما زالت قاسية ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: 76].

قال المفسرون: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي بالشدائد كالقحط، والجوع، والفقر الشديد.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 43-45].

هذه الأزمة حَوَّلَتْ أناساً من غنى إلى وضع متوسط أو أقل، وحَوَّلَتْ أناساً من وضع متوسط إلى فقر، وحَوَّلَتْ أناساً من فقر إلى فقر شديد وكل ذلك من البأساء.

تطلق البأساء على ما يصيب الأمم من أزمات تجتاحها؛ بسبب الحروب والنكبات والضراء، وتطلق على الأمراض والأسقام التي تصيب الأمم والأفراد.

لو قرأتم أيها الإخوة لوجدتم الضر والبلاء والضيق والكرب والحاجة والفقر والقلة نزلت بالأنبياء والصالحين، ونزلت بالفجار والكافرين، غير أن الأنبياء والصالحين إذا نزلت بهم الضراء فهموا على الله عز وجل أمره ونهيه فتضرعوا إلى الله ونادوه والتجؤوا إليه؛ فازدادوا رفعة مع رفعتهم.

✓ قال تعالى عن سيدنا يونس عليه السلام وقد وقع في ضر وبأس وشدة شديدة: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: 139-148].

قال الإمام ابن حجر: ((وقد روى قصته السُدِّيْ في تفسيره بأسانيده عن ابن مسعود وغيره أن الله بعث يونس إلى أهل نينوى وهي من أرض الموصل فكذبوه فوعدهم بنزول العذاب في وقت

معين وخرج عنهم مغاضباً لهم فلما رأوا آثار ذلك خضعوا وتضرعوا وآمنوا فرحمهم الله فكشف عنهم العذاب، وذهب يونس فركب سفينة فلججت به فاقترعوا فيمن يطرحونه منهم فوقعت القرعة عليه ثلاثاً فالتقمه الحوت.

وروى ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن ميمون عن ابن مسعود بإسناد صحيح إليه نحو ذلك وفيه: وأصبح يونس فأشرف على القرية فلم ير العذاب وقع عليهم وكان في شريعتهم من كذب قتل فانطلق مغاضباً حتى ركب سفينة وقال فيه فقال لهم يونس: إن معهم عبداً آبقاً من ربه وإنها لا تسير حتى تلقوه، فقالوا: لا نلقيك يا نبي الله أبداً قال فاقترعوا فخرج عليه ثلاث مرات فألقوه فالتقمه الحوت فبلغ به قرار الأرض فسمع تسبيح الحصي ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

وروى البزار وابن جرير من طريق عبد الله بن نافع عن أبي هريرة رفعه: لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أمر الله الحوت أن لا يكسر له عظماً ولا يخدش له لحماً فلما انتهى به إلى قعر البحر سبح الله فقالت الملائكة: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة قال: ذاك عبدي يونس فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل.

قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش)) [فتح الباري لابن حجر العسقلاني].

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِيْ وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ**» [الترمذي].

فسيدنا يونس فهم على الله وهذه الأزمة ما جاءتنا إلا لنفهم على الله وإذا كان أحدنا يشرك مع الله غيره فليرجع للتوحيد.

أول هذا الدعاء توحيد، وأوسطه تسبيح، وآخره اعتراف بالذنب.

سبحانك: أي أنزهك يا رب عن كل نقص، وعن كل عيب نسبته إليه في السابق، وعن كل تقصير صدر مني نحوك.

ترى أحدنا:

- يأمره الله أن يأكل الحلال وهو لا يستجيب.
- موظف يأمره الله بالانتهاء عن الرشوة ولا يستجيب.

- يأمرها الله بالحشمة ولا تستجيب.
- مطلق لزوجته ولا يعطيها حقوقها.
- زوجة ناشز وقد نهاها الله عنه ولا تستجيب.
- يأمر الله الابن ببر والديه ولا يستجيب.
- أب يأمره الله بالإنفاق على أولاده وهو يضع نصف راتبه في المقاهي ويضيق على أولاده طعامهم وشرابهم.
- متزوج لم يزر أمه من أربعة أشهر؛ لأن سيتشاجر مع زوجته إذا زارها.

فهؤلاء العباد أليسوا هاربين من الله ومعرضين عن أمره؟ أليسوا يعبدون الله ويعبدون معه هواهم ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: 43].

فالأزمة فرصة لنلتجئ إلى الله، ونعود إليه كما عاد سيدنا يونس إلى الله فكانت له النجاة.

لا يشترط أن يكون الحبس في سجون الأرض بل ربما يحبس الله الإنسان بنفسه فتراه يعمل من الصباح إلى المساء ولا يكفيه عمله، ولا يرضى عنه أحد.

إذا لم تفهم على الله بالإنعام فقد يرسل لك الابتلاء.

قد يخطئ ولدك خطأ كبيراً فتَهِمُّ بمعاقبته لكنك تأتي إليه فتسأله: هل أنت من فعل ذلك؟ فإذا أنكر فعله وأنت تعلم أنه من فعل ذلك لزدت عليه العقاب ولربما كنت لا تريد عقابه فتصبح تريد عقابه؛ لأنه جحد فعلته، أما إذا أردت معاقبته لكنه اعترف بذنبه فلعلك تكف عن عقوبته.

ولله المثل الأعلى فسيدنا يونس اعترف بخطئه هذا فرفع الله عنه العقاب، وكذلك يكون هذا لكل مبتلى منا إذا اعترف بخطئه وعاد إلى الله تائباً منيباً.

قال ابن كثير في تفسيره: ((**وقوله:** ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الأنبياء: 88] **أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات وكذلك ننجي المؤمنين أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء**)).

عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى؟ الدَّعْوَةُ الَّتِي دَعَا بِهَا يُونُسُ حَيْثُ نَادَاهُ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**». **فَقَالَ**

رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ كَانَتْ لِيُونُسَ خَاصَّةً أَمْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحاكم].

✓ قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 89-90].

أليس من الغريب في هذه الأزمة أن ترى أناساً لا يقومون قبل الفجر ولا يصلون من الليل ركعات ليناجوا بهم ربهم!!

أليس عجيباً أن ناساً منا إذا دعا الإمام تأفف من تطويل الدعاء بحجة العمل!!

ألا تشعر أنه ينبغي عليك أن ترجع إلى الله عز وجل لتسأله سؤال المضطر.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ» [الترمذي].

✓ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83-84].

✓ قال ابن إسحاق: ((**ثم عدَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف، ورجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصديق، ليس معه فيه غيره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، وأبو بكر يقول: يا نبي الله: بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك. وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله. هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع**)) [سيرة ابن هشام].

قد يقع في خاطر أحدنا أنه إنسان سيئ أو مقصر أو بعيد عن الله ولن يفيده الدعاء، فأقول له: إن التضرع جاء ليعيدك إلى ربك، وليقربك إلى الله عز وجل، ولتعود إلى الفطرة التي فطرك الله عليها من صلتك بالله عز وجل.

عندما كنتم أجنة في بطون أمهاتكم من الذي كان يوصل لكم الطعام والشراب؟ هو الله.

من الذي نجاكم من المهالك وأنتم في أرحام أمهاتكم؟

الله من يخرج لنا الخضار والفواكه والشمس والقمر ويأتي بالماء والهواء للعباد...

كل ذلك ليس من تدبيرك ولا من تخطيطك ولا عملك ولا إرادتك فالله هو الفعال، أفيصعب على الله أن يجلي هذه الأزمة عنك؟!

عليك أن تتضرع إلى الله ولعل الأمر متوقف على تضرعك أنت.

((**كان محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم في جيش، وكان صاحب خراسان، وكانت الترك خرجت إليهم فبعث إلى المسجد ينظر من فيه؟ فقيل له ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبعه، فقال قتيبة: إصبعه تلك أحب إلي من ثلاثين ألف عنان**)) [صفة الصفوة لابن الجوزي].

يا إخواننا هذا الالتجاء والتضرع والإقبال على الله عز وجل باب واسع للفرج العام وللفرج الخاص.

يا أيها الأخ اجعل لنفسك ورداً في الليل والنهار، أحياناً يُفتح لك بالدعاء فتشعر كأن الكلام ينهال عليك من السماء فهو رزق ساقه الله على لسانك وقلبك فتابع دعاءك ولو ظللت لساعة.

كان أحد الصالحين يناجي ربه فيقول:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفك ما ألهمتني الطلبا

ثقوا ثقة كبيرة بأن الله لن يضيع التجاء العابد، ولن يضيع تضرعه، ونداءه لكن الله يريدنا جميعاً أن نقبل عليه، فما استطعنا أن نجعل لنا ورداً يومياً من الدعاء فيه التجاء وتضرع إلى الله عز وجل في أن يرفع عنا هذا البلاء وأن يفرج عنا ما ينزل بنا فلنفعل؛ لأن التضرع والالتجاء إلى الله هو أوسع أبواب الفرج ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.